تحقيق الذات عند المرأة الفلسطينية
وكسر قيود المجتمع
رواية "حرمتان ومحرم" نموذجا

د٠ مريم طه عارف عفانة(*)

المقدمة :

لا ريب أن الكاتب صبحي فحماوي يمتلك موهبة في اختيار عناوين رواياته، فكل رواية تحمل عنوانا يخبئ بين ثنايا الرواية آلاف التأويلات والتي ترتبط بفكر الكاتب ورؤيته النقدية.

وفي الدراسات النقدية الحديثة غدا العنوان عتبة مهمة من ملامح الرواية نفسها، حيث يُعد الملمح الأول الذي يوجه القارئ ويحدد علاقته مع النص الروائي، وعلاقة العنوان مع النص الروائي من جهة أخرى.

وتكمن أهمية الدراسة في الصبغة الثقافية والمعلومات القيمة التي يوظفها الكاتب بطريقة ذكية لتكون حجر الأساس في تشكيل البناء السردي عنده. فنرى فحماوي قد رسم بريشة قلمه أحداث روايته من خلال بطلتين من بطلات فلسطين، ليستعرض لنا عالما حقيقيا وفكرا عربيا متأصلا كنسق ثقافي عند الرجل الشرقي.

(*) كلية الآداب والعلوم والإنسانية – قسم اللغة العربية– جامعة طيبة – ينبع – المملكة العربية السعودية.

تنطلق هذه الدراسة من حقيقة تجسدها الثقافة العربية أن النساء دائما يخضعن للرجال تبعا للطبيعة البيولوجية التي تنظر المجتمعات بها إلى المرأة. لذلك تجد الباحثة هنا في رواية (حرمتان ومحرم) أن الكاتب يرفض قولبة المرأة في المجتمع بسبب افتقارها للقوة كما يظن البعض.

تمهيد سياسي ثقافي:

رغم الحصار السياسي والثقافي على المرأة بشكل عام والفلسطينية بشكل خاص، لكننا نرى أن المرأة الفلسطينية استطاعت كسر الكثير من الحواجز البشرية، وأهمها العدو الصهيوني الذي يظن أن قبضته الحديدية عليها وهي المرأة الولود ورمز القوة وروح الأرض وأصالة الزمن ستكسرها – خاب ما ظن–.

وحسب الإحصائية الصادرة عن المؤسسة المختصة بالأسرى في سجون الاحتلال الصهيوني أن عدد الأسرى الذين يقبعون في سجون الصهاينة يبلغ ٦٥٠٠ أسير، منهم: ٥٧ امرأة، و٣٠ طفلا[١] .

ناهيك عن الضغوط الكثيرة التي تمارس على المرأة الفلسطينية سواء من قبل الاحتلال الصهيوني الذي يحاول كسر كرامة الرجل الفلسطيني من خلالها وتحطيم إرادته وإرادتها بحصارها في دائرة الاتهام، أو الضغط على المتهم حتى تكسر شوكته فيخضع لسلطات الاحتلال دونما مقاومة. وتتعرض الأسيرات لأسوأ أنواع المعاملة، بتهديدهن بالتحرش الجنسي، أو الاعتداء الجسدي عليهن، والتفتيش العاري، والحرمان من اللقاء بأطفالهن لمدة طويلة.

وذلك على الرغم من النص القانوني الذي يحفظ حق الأسير من خلال معاهدة جنيف الثالثة وقد كانت إسرائيل طرفا في الاتفاقية والتي تنص على حق

(١) مجلة المرأة العربية ميم، زياد عالول، https://meemmagazine.net.

الأسير في المعاملة الإنسانية وحفظ إنسانيتهم، والحق في تلقي الرسائل والزيارات من أهلهم.

ونصت الاتفاقية على حق السجين بمتابعة دراسته ومتابعة الأخبار وقراءة الكتب ونقل المرضى إلى المستشفى وحق توفير الرعاية للأم الحامل وممارسة الأمومة مع وليدها[١] .

وبينت الاتفاقية أطر معاملة الأسرى من حيث مكان الإقامة بأن تكون لائقة صحية وحرية استخدام دورات المياه والطعام المقدم لهم. لكن أي قانون يمكن أن تطبقه سلطات الاحتلال إذا كانت هي الجلاد المدعوم من كل قوى الشر والطغيان!

هذا من جهة. لكن المفارقة الحقيقية تكمن في الحصار المفروض على المرأة الفلسطينية من قبل مجتمعها، فهي محكومة لأسرتها ولأسرة زوجها وللمجتمع، من باب مبدأ الحماية وأنها أنثى يجب أن تسور بسياج عالٍ.

ومن أشكال الحصار المجتمعي خضوع المرأة لسلطة الرجل أو السلطة الأسرية والتي تفرض عليها نمطا مقيدا من الحياة تجعلها تحت أعين الرقابة في كل عمل تفعله. .

لقد رسّبت الثقافة العربية بنجاح ثقافة الرجل والمرأة على مر العصور. هذه الثقافة التي تنظر إلى المرأة على اعتبار الجنس فترتفع الأسوار عليها عاليا بسبب مركزية الذكورة . هذه الثقافة تنظر إلى المرأة أنها الثانية في كل شيء، وأن الأصل في كل شيء هو الرجل.

---

(١) مجلة المرأة العربية ميم، زياد عالول، https://meemmagazine.net.

لقد مررت الثقافة العربية أنساقا مضمرة تمركزت في وعي الرجل وأعطته الحق أن ينظر إلى المرأة من باب الدونية والضعف على اعتبار أن افتقار المرأة إلى عضو الذكورة يعني افتقارها إلى القوة[١].

إن الفكرة القائلة" إن المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة"، تشير بوضوح إلى دور المجتمع وقبله الأسرة في صياغة وضع الأنثى فيه، فهي مجبرة أن تتسم بصفات معينة تحت تأثير المجتمع والثقافة السائدة فيه[٢]. فتلك السمات الأنثوية لا تولد مع النساء إنما تتشكل أثناء صيرورة حياتهن .

إن ارتباط المرأة بالرجل من باب الدور الذي تلعبه المرأة في حياة الرجل، فهي الأم الوجود الأول له من تحملت وحملت وأرضعت وربت وسهرت حتى صار شابا يافعا لتسلمه إلى يد الزوجة شريكته ووليفته. هي الأخت التي تساعد وتنصح ، هي مسميات كثيرة تتشكل منها نفسية الرجل فتؤثر فيه وتؤثر على تفكيره من خلال تجاربه المختلفة.

تقول بعض الآراء أن كلا من الرجل والمرأة خلق للآخر، لكن تختلف درجة تبعية كل منهما للآخر، فالرجال بطبيعة الحال تابعون للنساء بحكم رغباتهم، في حين تكون النساء تابعات للرجل باحتياجاتهن ورغباتهن[٣]. وعلى الرغم من أن الباحثة لا تؤيد هذا الرأي الذي ينظر إلى المرأة كجسد فقط دون النظر إلى عقلها وفكرها، لكنه فكر حقيقي جسدته منتجات الثقافة العربية على مر العصور.

---

(١) المرأة في فكر سيمون دي بوفار، جواد كاظم، مجلة آداب الكوفة: العراق، مجلد٩ عدد٣٠، ٢٠١٧م، ص٣١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٧.

(٣) انظر المرجع السابق، ص٣١٥.

وعلى الرغم من أن الرجل ينظر إلى ضعف المرأة نظرة إيجابية على اعتبار أنها سمة من سمات الأنوثة دون النظر لعقلها حيث يقال في المثل الشعبي:" النسوان ناقصات عقل ودين"[١]. وتتحول تلك الإيجابية حسبما يرى المجتمع ضرورة ذلك التحول، فالإيجابية تصبح سلبية بنظر المجتمع لوجود العبء المادي على الأسرة. وقد يتحول الضعف الإيجابي إلى وصمة عار عند مطالبة المرأة بحريتها أو مساواتها بالرجل؛ لأنها ستتخلى عن أنوثتها للانضمام لمجتمع الرجال. فتظهر التغيرات كثيرة عليها من حيث قص الشعر والتقيد بنوع معين من اللباس، وكأن التخلص من التبعية لا يكون إلى بالتخلي عن الأنوثة ومظاهرها.

وتجد الباحثة أن الكاتب صبحي فحماوي قد نجح بروايته (حرمتان ومحرم) في تحرير كل من ماجدة وتغريد من التبعية التي كبلتهما بمسؤوليات تجاه عائلتيهما فتخلتاعن لقب (الأنثى الأبدية)[٢] الخاضعة الذليلة عندما وافقتا على العمل المنتج في أصعب ظروف الاحتلال، ثم قررتا الزواج من أبي مهيوب.

إن رواية (حرمتان ومحرم) تعرض لنا عالما عن عالم الحريم بطريقة ذكية دون إسفاف بعناصر الرواية الأخرى.

العتبات النصية للرواية:

تقف الباحثة عند العتبة الأولى من عتبات القراءة الفعالة التي تكشف لنا علاقة العنوان بالنص . فيُعدُّ العنوان مرآة تعكس جوانب مضيئة من الرواية

(١) المرأة في المثل الشعبي في الأردن وفلسطين، حسين نشوان، الآن ناشرون وموزعون: عمان، ٢٠١٤م، ص٤٧.

(٢) المرأة في فكر سيمون دي بوفار، ص٣١٨.

يسلط بها الكاتب نظر القارئ إليها؛ ليبرز لنا قضية مهمة. إن العلامات اللسانية التي يبعثرها الكاتب هي قصدية تنويرية موجهة للقارئ لتبعث إضاءة في فهم النص.

لا تعد عملية اختيار المؤلف للعنوان مهمة سهلة، فهي تحتاج منه وقتا من التأمل والتفكير والتدبر؛ ليكون بنية دلالية إشهارية عامة للنص تتصدر أهميتها عند المؤلف والمتلقي على حد سواء، حيث يشتغل العنوان كعلامة يعلن من خلاله الكاتب عن نواياه، وعن المضامين التي سيتضمنها النص لذلك قالوا إن" دراسة العناوين للرواية العربية كخطاب هي دراسة تبسط مشهدا كاملا يغري بالمتابعة، ويدعو إلى استفتاء خصوصياته ومكوناته، ثم وظيفة الوصول إلى نتائج تدعو إلى تحليل صارم للعنوان باعتباره جزءا من المشهد الروائي المتميز في الراهن الثقافي"[١] .

وبالوقوف على رواية صبحي فحماوي تجد الباحثة أن روايتنا المعنية بالدراسة قد تصدرت بعنوان (حرمتان ومحرم)، والعنوان دال يرتبط بمدلول هو الحكاية التي يعرضها لنا الكاتب في ثنايا الفصول . وأهمية العنوان من خلال الوظيفة التي يرسلها كشفرات للقارئ، "وقد حدد (جيرار جينت) وظائف العنوان بأربع، هي : الإغراء، والإيحاء، والوصف، والتعيين، وهو مكمل للنص ودال عليه"[٢] .

استخدم الكاتب بنية الدوال الأسمية، بكلمة (حرمتان)، ثم الاسم المعطوف على الحرمتان (المحرم)، وهما مشتركتان في الجذر الثلاثي، فمادة (حرمتان)

(١) النص الموازي للرواية- استراتيجية العنوان-، شعيب حليفي، مجلة الكرمل، العدد ٤٦، ١٩٩٢م، ص٨٤.

(٢) البنية السردية في رواية صبحي فحماوي حرمتان ومحرم، محمد حسن عبد المحسن، دار الحوار للنشر والتوزيع: سوريا، ٢٠١١م، ص١٢.

من حرم والحُرْمة: بتسكين الراء وضم الحاء وتعني ما لا يحل انتهاكه. أما المحرم: إذا لم يحل له نكاحها[١]. وتكثيف حرف الحاء الذي سيميائيا يحمل معنى السياج والحائط[٢]، وهنا يتبين للباحثة مقصدية الكاتب في استخدام هذا العنوان[٣]، والذي يتوافق مع المتن الروائي الذي يحاول فيه فحماوي أن يعرض للمتلقي الأساليب المنوعة التي تستخدمها الصهيونية في قمع الشعب الفلسطيني وقمع حريته بشتى الطرق والوسائل.

فمن خلال تلك الظروف التي يمهد لها تتشكل حكاية تغريد وماجدة مع أبى مهيوب. لتبدأ من داخل الأراضي الفلسطينية ولا تنتهي بأرض الرمال الواسعة.

من جهة أخرى صدر الكاتب بكلمة (حرمتان) فإن كان يريد الصدارة للمرأة لم استخدم كلمة حريم؟ فتتبادر لذهن القارئ صورة عن مؤسسة الحريم، هذه المؤسسة القاسية التي تبرز المرأة بصورة مشوهة فتحرمهن من حقوقهن وعلى رأسها حق التحرك(الحق في السفر واكتشاف أرض الله الواسعة)[٤]. وهنا المفارقة فالأصل أن يكون المحرم متقدما على الحرمتين حسب المؤسسة الذكورية التي تعطي الآخر للمرأة على أساس أن الحتمية البيولوجية هي التي جعلت المرأة جنسا ثانيا .(عبارة " حرمتان ومحرم"، هي عبارة ساخرة من تسمية الحرمة، ذلك لأن الرواية توضح أن كل حرمة منهن تعيل عدة أسر،

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، دار الحديث: القاهرة، مادة حرم.

(٢) النظام السيميائي للخط العربي في ضوء النقوش السامية ولغاتها، يحيى عبابنة، منشورات اتحاد الكتاب العرب: (ب.ن)،١٩٩٨، ص٣٩.

(٣) انظر الفن الروائي عند صبحي فحماوي، إبراهيم الحمد، دار جليس الزمان: عمان، ٢٠١٤م، ص٥٢.

(٤) شهرزاد ترحل إلى الغرب، فاطمة المرنيسي، ترجمة: فاطمة الزهراء أوزيل، طبعة٣، المركز الثقافي العربي: بيروت، ٢٠١٠م، ص٧.

وتتفوق على عشرة رجال، وبذلك تكون قوامة على الرجل بما أنفقت من أموالها).

إن الأنساق الثقافية التي حاولت على مر السنين ترسيخها هو مفهوم الأنثى الأبدية[1]، والذي تشكل ضمن ثقافتنا العربية وزرعتها المؤسسات الذكورية في كل مكان وعلى مر السنين. هذه الثقافة التي تنظر للمرأة ضمن معادلة دنيئة مفادها أن الأنوثة تعني الخضوع والدونية في حين أن التنافس مع طابور الرجال يعني التخلي عن أنوثتها وبالمحصلة إنسانيتها.

وعند النظر إلى صورة الغلاف تجد الباحثة أن الكاتب من البداية يستخدم أسلوب المفارقة من خلال عنوانا الرواية والصورة المرافقة للغلاف. لقد جاءت الصورة مخالفة للعنوان، فقد قدم صورة الرجل (المحرم) على المرأتين، ووسط صدر الرجل حمامة بيضاء تحمل عينا إنسانية كبيرة وكأنها تتطلع إليهم للمستقبل المشرق لدلالة اللون الأبيض، لكن بالمقابل تلك النسوة منطلقات الشعر لا يلتزمن بقوانين الحرمة التي مورست عليهما. ثم تخترق تلك الصورة من الأسفل للأعلى أعمدة أسيجة شائكة. لتكون تلك الأسلاك الشائكة حاجزا يفصلهم عما بعد الأسلاك.

(١) هو مفهوم طرحته الكاتبة سيمون دي بوفار والذي اعتبرته بمفهوما يعبر عن الخضوع والدونية : من كتاب (المرأة في فكر سيمون دي بوفار) مرجع سابق ، ص٣١٨.

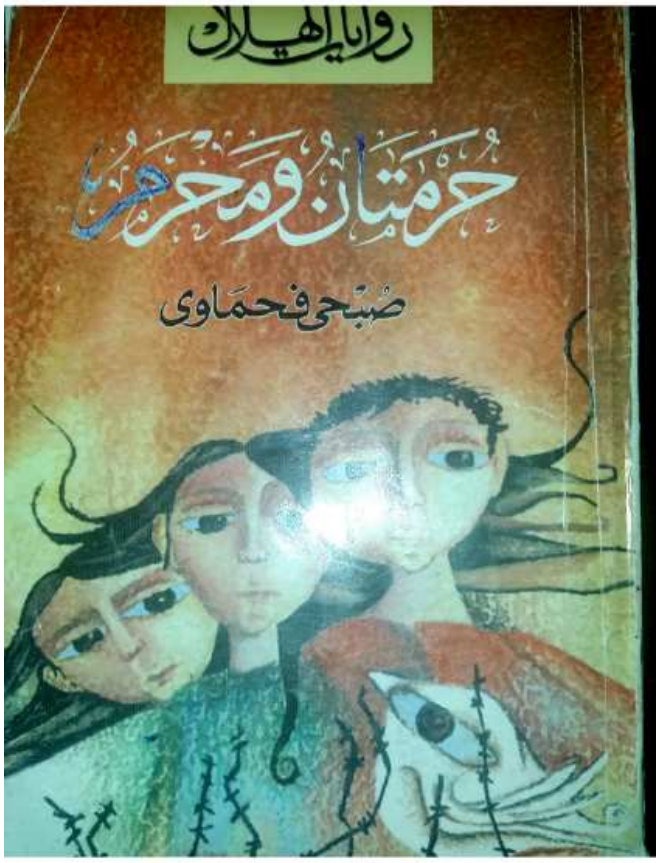

Scanned by CamScanner

يتصدر الغلاف من فوق اسم دار النشر (دار الهلال) وهذا مؤشر أن اختيار الغلاف قد رسمته دار النشر بدون استشارة المؤلف الذي قد لا يكون أوعز للرسامة صفاء علاء الدين بكيفية رسم الصورة بناء على تصوراته ككاتب للعمل الروائي.

تشترك تلك الشخصيات في الصورة مع الحمامة البيضاء بنظرة العينين، على الرغم من اختلاف الشخصيات رجل وإمرأتين وحمامة، لكنهم اشتركوا جميعهم بطريقة النظر إلى الحمامة التي تبادلت معهم النظر. وقد تراصوا في

الوقوف بجانب بعضهم البعض بشكل ترتيبي يتقدمهم الرجل ثم امرأة تليها امرأة لا يظهر منها إلا صورة الرأس الموارب .قد يكون ذلك الرأس هو العقل المفكر للمرأة الغالب على قوة الجسد.

(ألم يصبح عمل الرجل هو الرئيسي وعمل المعلمتين هو الفرعي، وبذلك استحق الإدارة ؟)

يخترق السلك المتشابك جسد كل الموجودين في الصورة، ربما أرادت الفنانة بالسلك المتشابك واللون الأحمر مع تدرج للون الأحمر إلى لون التراب كدلالة سياسية لسياسة القمع التي تمارس على الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة المحاصرة مما يجعل المرأة خاضعة لقوة العادات والتقاليد البالية التي يتمسك بها المجتمع حتى لو كانت على حساب الأفراد. وتلاحظ الباحثة أن جميعهم خلف الأسلاك وكأن تلك الأسلاك هي فاصل بينهم وبين ما يحلمون بتحقيقه. وتقف المرأة بموازاة الرجل؛ الكتف إلى الكتف كدلالة سميائية على مشاطرة المرأة المهام التي وكلت بالأصل للرجل، إن ما يتم تمثيله في الصورة ليس امرأة بل هو سلسلة من المواقف وشكل من أشكال سلوك الإيمائي الذي يريد الكاتب به لفت نظر المتلقي إلى حركة الجسد وما تحلمه من دلالة على حالة من الوعي الاجتماعي .

يتداخل عنوان الغلاف مع العناوين الداخلية، عدد العناوين الداخلية عشرون عنوانا، تصدرت كل منها بعنوان: (النجم الساطع، غبار، حرمتان ومحرم، درب التبانة، الرجل الآمر الناهي، قوة الفيتو، الرسم كان أولا، أعراس فوق المقابر، أفلام جنسية، الحدود، الغول، حرارة الصيف، خيانة زوجية، سيوف يعلوها الصدأ، الجرافة المجنونة، أنوثة ساحرة، هياج النحل، انفجار، أطعم الفم تستحي العين، انتهت الرواية" متعة الرعب") . أما الفصل الأخير فأخذ عنوان (انتهت الرواية) ثم عنوان آخر أسفله(متعة الرعب). وكأن الكاتب يريد التأكيد

على انتهاء فصول الرواية ليخرج القارئ من تأثير روايته من خلال متعة الرعب، فكيف يكون الرعب ممتعا من وجة نظر صبحي فحماوي؟

(ولماذا يحضر الشباب أفلام الرعب؟ أليس لمتعة الرعب؟).

تغريد النجم الساطع:

اختار الكاتب عنوانا للفصل الأول النجم الساطع[١] ليرمز لتغريد التي كبرت أمام جهاد وهي تلعب مع أخته ماجدة، لكن المسؤوليات الملقاة على عاتق جهاد لم تسمح له باللعب مع ماجدة وتغريد.

(وهنا يأتي دور الرجل في تحمل المسؤولية عند الشدائد)

فقد كان منشغلا بأعمال الحدادة التي أصبح الطلب عليها خفيفا، بسبب الانتفاضة فتحولت المحددة إلى تلبية طلبات معينة، مثل أبواب الأمان وتحديد حمايات للشبابيك وأبواب حديدية متينة للمحلات التجارية[٢] .

يصور لنا الكاتب مشهدا من مشاهد مختلفة من الجو العام التي أصبحت عليه المعسكرات والمخيمات الفلسطينية بعد قيام الانتفاضة، فبعد أن كانت النساء قد أخذت قسطا من الراحة بعدم العجن في المنازل وشراء خبز الأفران، رجعت النساء للاعتماد على خبز الفرن البيتي. وارتفعت نسبة العاطلين عن العمل بحوالي ٧٥% ليتجه معظم هؤلاء إلى العمل بالحدادة ليفتح باب التنافس فتقل الأسعار، ليظهر لنا الكاتب أن جهاد كان من ضمن المتأثرين بهذه العوامل فقلت إيراداته المالية.

---

(١) حرمتان ومحرم، صبحي فحماوي، دار الهلال للنشر والتوزيع: القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩.

يظهر لنا فحماوي مشهدا آخر من مشاهد حصار المحتل الغاصب لسائر بقاع الإقليم الفلسطيني؛ إذ تكون طلقة المغتصب في صدر فتاة تدرس هو أقل ما يمكن أن يحدث آنذاك.

(أنا معلمتي، أنا معلمتي.. دوت طلقة من الشباك مخترقة جسدها الطري، وسكنت قلبها الرضيع، طلقة نفذت إليها من النافذة، اغتصبت روحها حيث سكنت، فسكنت على درج كتبها، وانكسرت الزنبقة على حضن أوراقها التي تعلمها القراءة والكتابة..!)

يمهد الراوي(الكاتب) لرحلة تغريد وماجدة من خلال هذه المشاهد السلبية التي يعرضها لنا بطريقة القصة، فيستعرض لنا قصة جهاد وعمله وتغير الوضع معه وتأزمه المادي، وحال المعسكرات الفلسطينية التي تعاني الأمرَّين بسبب قوات الاحتلال والتغير الحاصل على القرى الفلسطينية بعد الانتفاضة ومقاومة الأطفال للدبابات بحجارة من سجيل، تلك الدبابات لا ترى شيئا يتحرك إلا وترميه، حتى الأشجار والحارات لم تسلم منها ولم يسلم منها نضال ولا رفيقه جعفر، فكلاهما قتلا وهو يحلم برغيف الخبز الساخن.

يبدو أن صبحي فحماوي لا ينفك يستخدم المفارقة في العناوين، فاستخدم النجم الساطع ليتحدث عن تغريد، لكنه في الحقيقة كان حديثه عن معاناة المخيمات الفلسطينية وصبغة الدماء التي لونت مواقعها.

(غبار)

يمهد الكاتب لشخصية أبى مهيوب وقصته من خلال الرجوع للزمن الغابر ليروي لنا من هو أبو مهيوب؟ وما هي حكايته مع العدو الصهيوني؟ ومن خلال الحكاية يكشف لنا جانبا إنسانيا في شخصيته ، فهو يفضل التعامل مع النباتات

والأشجار لأنها وفية لأرضها(فكل شيء يا أبو غازي تزرعه، تخلعه، إلا ابن آدم، تزرعه فيخلعك..!)[١] .

إن الزراعة عند أبى مهيوب تمثل تغييبًا للعدو الصهوني ومواجهة للعدو الذي يقطع ويجرف ويقلع.(لهذا السبب أنا أحب النباتات، وزراعة النباتات، وقطف ثمارها، وأعشق الأشجار وتحت ظلالها أتوارى عن الأعين، فلا أعود أرى المحتلين..!

ولكنه كان إذا تم تجريف مزرعة مجاورة للمعسكر، فإنه يبكي الأشجار قائلا: "يا ويلي لقد خسرت ما قد يأتيني من هذه الأشجار، فكم طعّمت، وكم أطعمت منها..!)[٢] .

إن الأشجار حياة وتجريف الأشجار هو قتل للحياة، وهكذا هو العدو أصابعه تمتد لكل عنصر من عناصر الحياة، يقول أبو مهيوب: (الآن فهمت أن قتل الأشجار هو قتل للحياة، أو قتل السعادة لدى أصحابها؟ وأن تجريف الأشجار هو المقدمة الحربية لتجريف الناس المتعايشين معها النصف الآخر)[٣] .

مشاهد القتل والدمار متلاحقة وراء بعضها البعض، وكأن الكاتب أمام عرض تصويري لا ينقطع، فذاكرته زاخمة بتلك الصور؛ مثل (عاد أبو مهيوب وأبو خليل من تشييع جنازتي الشهيدتين؛ الطفلة منى الشويني وأمها، فبينما كانت أمها ترضعها في فناء البيت، اخترقت رأس الطفلة مرورا بفمها وثدي

(١) حرمتان ومحرم، ص٣٦.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٧.
(٣) نفسه، ص٣٨.

أمها رصاصة واحدة موحدة... انطفأ الثدي، وبردت الأم وسقطت زهرتها قبل أن تعقد ثمرتها..!)[١] .

مشاهد حقيقية يرسمها الكاتب بقلمه بعناية فائقة ليبين حجم الحدث وقوة الكارثة ووقع المصيبة التي مرت على الشعب الفلسطيني بكل فئاته العمرية، فاليد القاتلة مدت آلة القتل للبراءة والطفولة- أي جريمة اقترفتها رضيعة ترضع من ثدي أمها.

ينهي الراوي الفصل بالحديث عن شخصية أبى مهيوب ومدى شعبيته في الحارة والقرى المجاورة ومدى الاجتماعية التي يتمتع بها ناهيك عن الصفات الأخلاقية التي يتمتع بها تجعله موضع ثقة من كل أبناء الحارة كبيرهم وصغيرهم.

(حرمتان ومحرم):

اتخذوا قرار السفر بعد أن ضغطت الأوضاع السياسية المتردية، وأكدت استحالة الحصول على وظيفة. وظل الأمر كذلك قرابة ثلاث سنوات، حتى تعاقدت تغريد وماجدة مع الوفد التربوي في ولاية الرمال العربية.

يظهر لنا الكاتب أن قرار السفر والخطة التي تم تدبير فيها أمر المَحرم لكلتا البنتين كان من قبل امرأتين هما والدة تغريد ووالدة ماجدة. (لم يعرف به أحد، إنه مجرد اقتراح، تتناقش به النساء أولا، ثم ينفذه الرجال أخيرا...هذه هي سنة الكون فمعظم الرجال هم الناطقون الرسميون بأفواههم ولكن النساء هن اللواتي يحددن توجه البوصلة)[٢] .

---

(١) نفسه، ص٣٨.

(٢) حرمتان ومحرم، ص٥٥.

تمتلك المرأة السلطة الكلامية التي تستطيع من خلالها تسيير الأمور كما تحب أن تراها، فالمرأة الشرقية استطاعت من خلال كلماتها وذكائها وقدرتها على نسج الحوار أن تسيطر على زوجها بطريقة ذكية. والمرأة ليست موضوعا للطعام والجنس والبطالة فقط بل هي عقل مدبر قادر على التعبير ، فبإمكان الرجل الشرقي أن يستسلم للقدر ولكن يستحيل ذلك على المرأة، فعليها أن تقاتل بطريقتها الخاصة لكي تحول العالم[١] نحو ما تريد تحقيقه.

وتم بالفعل ما دبرته المرأتان لكن العمل مشروطٌ بمدة زمنية هي (سنتين) ترجع بعدها كل من تغريد وماجدة من أجل الزواج كل من خطيبها، لممارسة حياتهما الطبيعية مثل باقي الفتيات.

لم يكن صعبا الحصول على موافقة أبى مهيوب بالقيام بدور المحرم مع وقف التنفيذ لمهمة المحرم الحقيقية.

إن البساطة التي رسم بها الكاتب شخصية أبى مهيوب جعلت منه الشخصية الأهم في صفحات رواية (محرمتان ومحرم) فيداه تزرع وتغرس في أرض قرى فلسطين أشجار الزيتون والبرتقال والتفاح ليحول تلك القرى إلى جنة خضراء. والقدرة التي وهبها الكاتب له من خلال تسيير أمور المعاملات على الرغم من الإجراءات الطويلة والتي كان مسيطرا هو فيها بحكم ولاية الرمال التي يجب على المحرم أن يكون حاضرا لإتمام جاهزية مباشرة العمل. ولم يكن صعبا عليه أن يقنع المسؤول بوجوب وجود الزوجتين بنفس المنطقة ،لأن الطابع المؤسساتي في ولاية الرمال قد أعطى التعدد شرعيته مما أوجب وجود المحرم لكليهما في منطقة قريبة منهما.

(١) شهرزاد ترحل إلى الغرب، فاطمة المرنيسي، ص ٢٧.

(الرسم كان أولا)[1] (أعراس فوق المقابر)

إن المشاهد الأولى من الحياة دوما تكون جميلة؛ لذلك كان الرسم أولا لكن هنا الرسم غير ممكن، فالحياة هنا مختلفة بكل مقاييسها –حسب رأي البطلة– فكل أدوات الدفن موجودة وعليها الالتزام بهذه الأدوات التي تعدها حماية لها من الضباع البشرية التي تحاول اقتناص النظر من تحت العباءة . فالمرأة مجبرة أن تتسم بصفات معينة تحت تأثير المجتمع والثقافة السائدة فيه. لكن في مجتمع ذكوري تكون الأولية للذكر في كل الظروف فمن خلال حوار البطلة تغريد مع الطالبة من جهة ومع ماجدة من جهة أخرى وظف –الكاتب هنا – التفكير الناقد لنقد المجتمع الذكوري الذي ينادي بسلطة الرجل على المرأة.

كشفت الحكايات الاجتماعية نسق القبول الذي فرضه المجتمع على أم الطالبة وزرة عندما قام زوجها بالزواج من عشيقته بعد أن فضحت أمرهما فقبلت قبولا قهريا؛ لأنها تعي واقعها المجحف الظالم الذي يعطي شرعية لممارسة الرجل بحقه الشرعي بالزواج. لقد تقبلت واقعها نتيجة لما رسخته الثقافة الذكورية بمجتمع يعترف بحق الرجل بالزواج مثنى وثلاث ورباع. لكنها خسرت زوجها بعد زواجه من عشيقته. في حادثة أخرى من حديث تغريد مع الطالبة الأخرى حصة حيث حكت حكاية اعتبرتها تغريد بأنها مقززة[2]. فقد اكتشفت أم حصة خيانة زوجها وتعاملت بحكمة مع الموقف فلم تفضحه بل سترت عليه أمام خلق الله فاستقوت عليه فلم يعد يقوى إلا بالتنازل والتراجع في كل مرة[3]. أن موقف كل من أم وزرة وأم حصة في اكتشاف خيانة زوجها

(١) حرمتان ومحرم، صبحي فحماوي، ٧٣. اختيار الفصول في البحث خاضع للباحث حسب رؤيته في البحث . قد يكون الكاتب أغفل عن بعض الفصول بقصدية منه.

(٢) حرمتان ومحرم، ص١٠٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٠٤.

لها يعد انكساراً حقيقياً لأنوثتها، لكن مواجهة الموقف تبعا لقبول الواقع من الذات الأنثوية التي تكون رافضة لكنه يتمسك بالقبول حماية للذات من قبيل التعايش مع واقعه المأزوم(١).

إن الدهاء الذي تعاملت به أم حصة دفاعا عن بيتها خلق منها امرأة قوية رفضت أن تلعب الدور الذي لعبته أم وزرة لذلك لم يستطع زوجها إلا أن يرضخ لتلبية طلباتها.

هذه الصورة التي خرقت الصورة النمطية التي يحاول المجتمع دائما ترسيخها من دور المرأة النمطي المقهورة والمكسورة والراضخة للأمر الواقع المتقبلة لخيانة الرجل لقد كسرت في موقف أم حصة فخلقت الظروف منها امرأة بعيدا عن الصورة النمطية التي يحددها المجتمع بأدوار محددة.

تقول سيمون دي بوفار:" إن المرأة الواحدة من النساء لا تولد امرأة ولكنها تصبح فيما بعد امرأة"(٢). إن المجتمع هو الذي يعطي دورا محددا للمرأة لكن تملك المرأة المفكرة القدرة على تغيير واقعها من خلال إثبات ذاتها في العمل فهي أفضل من مئات الرجال الكسالى. لقد مارست تغريد وماجدة رفضا للواقع من خلال رحلتهما بالبحث عن عمل، فعلى الرغم من عدم توفر فرص العمل لهما في الوطن – وهو الغالب– فالحصار لم يترك لهم مجالا لتحسين الوضع الاقتصادي والظروف السياسية التي جعلت من الوطن الكبير بقعة صغيرة محاصرة بمدافع العدو ودباباتهم. لكن المرأة الفلسطينية لا تعرف اليأس فالظروف المحيطة تخلق امرأة قادرة على قهر ظروفها وصياغة وضعها بناء على المعطيات الجديدة المحيطة بهم. ومن جهة أخرى فالوطن المحاصر

(١) الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، أحمد موسى المسعودي، نادي أبها الأدبي: عسير، ٢٠١٤/، ص٩٥.

(٢) المرأة في فكر سيمون جي بوفار، ص٣١٧.

يفرض حصارا على أبنائه؛ من خلال محددات سَنّها المجتمع على الفتاة بضرورة الالتزام والتقيد بها؛ لكن أن تكون الفتاة متعلمة يؤهلها أن تكسر قيود المجتمع. ولهذا خرجت تغريد وماجدة من ذلك الحصار السياسي والاجتماعي المفروض عليهما فبذلتا جهدا في البحث عن عمل في بقعة محصورة داخل الوطن المحاصر ببنادق العدو وأسلحته المدججة.

وتأتي المفارقة أن المجتمع يعطي الحق بعمل الفتاة طالما هي محصورة بتقديم الدعم الاقتصادي للأهل.

لذلك لم يكن غريبا أن تكون هناك المبررات لزواج أبى مهيوب الرسمي مع وقف التنفيذ من الفتاتين مبررا لخروجه معهما. فأي حق يعطي الشرعية لمثل هذا الزواج من أجل وضع الأمر أمام المجتمع أن الأمر قانوني وضمن الحق وتبدأ المبررات: " أبو مهيوب رجل محترم، ومعروف في كل المعسكر بأخلاقه وعمله الزراعي، وهو رجل فاعل ومنتج، وليس عالة على أحد"(١) .

أبو مهيوب هو رجل فاعل ومنتج أي أن لن يكون عائلا على الفتاتين، فتحقيق الفائدة الاقتصادية لن تكون إذا استغل أبو مهيوب وضعه الرسمي كمحرم للفتاتين، لذلك البحث عن محرم يتوافق وأهواءهم الاقتصادية، ويتطلب منهم الحذر والحيطة على من سيقع عليه الاختيار لممارسة دور المحرم دون الاستفادة الاقتصادية. تركيز الكاتب على تسيير وتسهيل وضع أبى مهيوب كمحرم لتجويز سفره مع الفتاتين دون الاهتمام لأمر الرجلين اللذَين ارتبط اسم الفتاتين بهما منذ زمن.

التركيز هنا كان على عدم استغلال أبى مهيوب للفتاتين استغلالا اقتصاديا أكثر من اهتمامهم على الوضع الرسمي لمسمى المحرم؛ الزوج.

---

(١) حرمتان ومحرم، ص٥٣.

إن تقبل الفتاتين لواقعهما أدخلهما في دائرة الرضوخ وقبول الواقع المفروض، فالظروف المحيطة وانعدام فرص العمل وتردي الحالة الاقتصادية سيرت تغريد وماجدة . وتغيرت تبعا لذلك المفاهيم التي عرفت في المجتمع على انها مسلمات، فلم يعد مفهوم العيب مسيطرا في خروجهما للعمل وبالوقت نفسه بوجود محرم غريب وتزوير أوراق رسمية فأي عالم هذا ؟ عالم الرجال الذي يغير وجهه تبعا للظرف المحيط به؟

(بل هو عالم الاحتلال الغاشم الذي يجعل الأم والأب يتنازل عن ثقافته ومبادئه ولو بصعوبة).

أي مفارقة يحملها النص للقارئ التي يوضحها الكاتب أن الظرف الاقتصادي يعطل الكثير الكثير من المخططات، وكما يقال في الأمثال الشعبية (الجوع بيدخل من الباب والحب بيطير من الشباك.) وطار الحب الذي كانت تحلم به تغريد وماجدة وقدم مع تقادم الزمن وسنين الغربة التي غسلت ذلك الحب فلم يعد منه حتى الملامح تغيرت. الزمن له سلطة على كل شيء فكيف اذا كان زمن الغربة؟ وآه وأوااااه من الغربة !

ومع مرور الزمن ومرور سنين الغربة تصبح المرأة مستلبة الوعي تحاول الخروج من الدائرة، فكلما رجعت تغريد وماجدة لوطنهما اتسعت الهوة بينهما وبين الوطن الذي استنزفهما لآخر رمق، وتحولت الغربة وطناً لهم جميعا! فبدأت تغريد وماجدة وأبى مهيوب بمحاربة فكرة الغربة بتقبلها لحماية الذات للتعايش مع واقع الوطن المأزوم.

جاءت حكايا الغربة متوافقة مع وضع المرأة العربية التي تعاني القهر بأشكال مختلفة وإن تلونت الحكاية لكنها هي حكاية قهر بطلها المرأة.

إن المجتمع يرسم للمرأة صورة نمطية يصعب الخروج من أسرها مستخدما في ذلك أساليب التدعيم المباشر كأسلوب القبول الاجتماعي الذي يعمل على إثابة اتساق المرأة مع القالب النمطي السائد أو أسلوب الاستهجان

الاجتماعي الذي يعمل على استنفاد السلوك الذي يتعارض مع الدور المرسوم المتمثل في حصر المرأة في أدوار محددة[١]. لذلك رسم الكاتب صورة المرأة النمطية في بداية الرواية من خلال شخصية أم وزرة، التي خرجت على تقاليد العرف الاجتماعي ففضحت زوجها بفعله الآثم فكان زواج الزوج من بمثابة غفران له على فعلته. في حين جاءت شخصية أم حصة التي استطاعت أن تكون نموذجا للمرأة الذكية التي قبلت المجتمع وقبلت واقعها المفروض عليها لكنه كان قبولا لحماية ذاتها فتعايشت مع الواقع اقتناعا منها بضرورة المحافظة على المظهر الاجتماعي المفروض عليها. وقد يكون الاختلاف بين موقف كل امرأة تبعا لعوامل عديدة منها ثورة التعليم والانفتاح على الثقافات الأخرى[٢]. وقد يكون المران والمشاهدة لغيرها قد علمها كيف تكون ذكية في مواجهة الموقف.

وتصاعد الحدث مع مرور سنين الغربة تتنامى معها شخصية تغريد وماجدة اللتان باتتا ترفضان ذلك الخضوع وتلك الساقية التي رُبطتا بها، فبدأ التمرد برفض واقع الوطن الذي يتفاقم مع تزايد سنين الغربة، فلا تظهر ملامح لتحسن الأحوال على الأهل أو الوطن، في حين أن فعل التغيير والزمن قد نقشت معالمه على ملامح الفتاتين.

ويمكن القول أن ولادة التمرد قد تحققت بشكل غير مباشر عندما تخلت تغريد عن حرصها بإغلاق باب الحمام على اعتبار أن أبا مهيوب هو زوجها شرعا مع وقف التنفيذ. فقد قبلت النفس بأبي مهيوب قبل قول تلك الحقيقة على شفاهما والاعتراف بها حقيقة من قبيل العمل.

لقد تمردت نفس تغريد وماجدة رافضة كل تلك المفاهيم البالية المفروضة على الأنثى؛ بهدف حمايتها في مقابل الموت البطيء لها لكل مسميات الحياة

(١) انظر المرأة والإعلام في عالم متغير، ناهد رمزي، ص١٩٩.

(٢) الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، أحمد المسعودي، ص٣٧.

لها. والحقيقة أن هذا الرفض إيجابي لأنه عملية دفاعية أصيلة صادرة من الشخص تجاه الواقع الخارجي[١] .

ويعد الرفض الذي تتخذه الذات من باب المقاومة لأوضاع غير صالحة في محيطها ومجتمعها ومحاولة تغييرها والاستبدال بها أوضاعا أخرى صالحة لا تتعارض مع ثوابت الدين. وإنما توافقها مستجيبة لمتغيرات الزمان والمكان[٢] ومن هنا يتبين لنا الموقف الذي اتخذته تغريد وماجدة وهو موقف مشروع وضمن حدود الدين والقانون وضمن شرعية الأهل الذين وافقوا من البداية على المبدأ نفسه.

ورضوخ تغريد وماجدة للوضع السابق بوجود المحرم أبى مهيوب ليس من باب القبول بل من باب الاستلاب التي تقع الأنثى تحت وطأته فأجبرت على قبول الزواج برجل لا ترغب به فقط من باب تحمل عبء فقر العائلة والوضع الاقتصادي السيئِ للعائلة.

ومن هنا يتبين لنا واقع تغريد وماجدة الذي فرض عليهما عبء التحسين وتوفير كل شيء فسقط النموذج الذكوري ليكون تابعا وهكذا كان أبو مهيوب. لكن سريان القرش بيد أبى مهيوب عزز وضعه الاقتصادي والاجتماعي في كلتا الغربتين لذلك تبدلت نظرة الحرمتين لمحرمهم " ما رأيك أبى مهيوب؟ ألا تشعرين أنه رجل وسيم؟" "فقالت تغريد بدهشة : وسيم لنفسه، ولمن يتعامل معهن!"[٣] .

إن عالم المرأة عالم سحري ينجذب إليه الرجال لكنها عندما تواجه الآخر وتحاول فهمه تتعرف على ذاتها أكثر ومعرفة الذات يعني امتلاك القدرة على تحصين الذات، فترفض الآخر عندما يكون مصدر قمع وتسلط فطبيعة المرأة

(١) استراتيجيات القراءة، بسام قطوس، مؤسسة حمادة: إربد، ١٩٨٨م، ص١٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٤.
(٣) حرمتان ومحرم، ص١٩٩.

ممكن أن تتقبل الرجل المعاق جسديا إذا كان متحررا ثقافيا[1]، وهذا ما برر لأبى مهيوب الذي تحمل تبعيات كل شيء بعد أن تغيرت أحواله الاقتصادية، فانجذبت ماجدة وتغريد له بعد أن تكسرت أغصان الزيتون كلها أمامهم، وسقط النموذج الذي عقدت كلاهما العزم عليه، فتحولت بسببه إلى عاملة تعمل وتبحث عن استقرارها ظنا منها أنها انتصرت لعقلها لكن مع وحشة الغربة والألم والحكايات التي سمعتها تغريد وماجدة في مجتمع الرمال لم تحرك فيهما سوى ردة الفعل بأن تحولت تلك الفتاة إلى الأنثى التي تقاوم النسق الذي يستهلكها ولا ينصفها فكان قرار الزواج ثورة على كل تلك القيود المفروضة التي لا ترى فيهما إلا آلات تعمل .

هل الانتماء للعائلة يعني أن تتحمل هي آهات العائلة في مقابل عدم فهم العائلة احتياجاتها! أم هي الفوارق البيولوجية التي تؤهل المرأة العربية لمثل هذا الدور ؟

أظن أن النهاية التي رسمها فحماوي هي رضوخ في ظاهرها لكنها في الحقيقة انتصارٌ لهما مما يعني الانتصار لرجولة أبى مهيوب الذي أبدع بتميزه وتحمله لحس المسؤولية، فكان أهلا أن يكون الزوج الباقي لهما. في حين تراجع دور كل من جهاد ليتناسب اسمه مع دوره في الحياة الذي عرفه بعد استشهاد أخيه بجرافات العدو الصهيوني، أما غازي الذي أراد أن يتحرر من عهده وارتباطه بماجدة، فقد تحرر من قيود مجتمعه وانصهر بحياة الغرب وعاش ضمن قوانينهم، وكان من المستحيل أن يرضى بارتباطه بماجدة الذي كان من مخططات الأهل.

**

(١) مقصدية العمل الأدبي بين التقييد والانفتاح، بوشعيب شداق، مجلة علامات في النقد الأدبي: نادي جدة الأدبي، العدد ٥٤/٢٠٠٤م، ص٤٤٨.

قائمة المصادر والمراجع:

- استراتيجيات القراءة، بسام قطوس، مؤسسة حمادة: إربد، ١٩٨٨م.
- الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، أحمد موسى المسعودي، نادي أبها الأدبي: عسير،٢٠١٤م.
- ألف ليلة وليلة والرواية التاريخية، ناديا خوست، مؤسسة الصالحاني: دمشق، ٢٠١١م.
- بانوراما النقد النسوي، حفناوي بعلي، دار اليازوري:عمان، ٢٠١٥م.
- البنية السردية في رواية صبحي فحماوي" حرمتان ومحرم"، محمد حسن عبد المحسن، دار الحوار: سوريا، ٢٠١١م.
- ثقافة الصورة في الأدب والنقد، أعمال مؤتمر جامعة فيلادلفيا، المكتبة الوطنية: عمان، ٢٠٠٨م.
- حرمتان ومحرم، صبحي فحماوي، دار الهلال للنشر والتوزريع: القاهرة، ٢٠٠٧م.
- خطاب الرواية النسوية العربية المعاصرة، رفقة محمد دودين، منشورات أمانة عمان الكبرى: عمان،٢٠٠٧م.
- سيميائية الصورة، قدور عبد الله الثاني،الوراق:عمان، ٢٠٠٧م.
- سيميائية اللغة، جوزيف كورتيس، ترجمة ليلى بن عرعار، دار نينوى: دمشق، ٢٠١٢م.
- شهرزاد ترحل إلى الغرب، فاطمة المرنيسي، ترجمة فاطمة الزهراء أوزيل، طبعة٣، المركز الثقافي العربي: بيروت،٢٠١٠م.

- الصورة الإشهارية آليات الإقناع والدلالة، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، ٢٠٠٩م.
- العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، ص٢٠٠٧م.
- الفن الروائي عند صبحي فحماوي، إبراهيم الحمد، دار جليس الزمان:عمان،٢٠١٤م.
- قضايا نقدية معاصرة في الرواية والقصة القصيرة، عمر عتيق، دار دجلة: الأردن،٢٠١٥م.
- المرأة في فكر سيمون ديبفوار،جواد كاظم، مجلة آداب الكوفة: العراق، مجلد٩عدد٣٠، ٢٠١٧م.
- المرأة في المثل الشعبي في الأردن وفلسطين، حسين نشوان: الآن ناشرون وموزعون: عمان، ٢٠١٤م.
- مقصدية العمل الأدبي بين التقييد والانفتاح، بوشعيب شداق، مجلة علامات في النقد الأدبي: نادي جدة الأدبي، العدد،٥٤/٢٠٠٤م.
- النظام السيميائي للخط العربي في ضوء النقوش السامية ولغاتها، يحيى عبابنة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨م.

* * *